الوضع العربى

(من مباحث فقة اللغة)

(لحضرة الاستاذ الشيخ احمد الاسكندرى)

الوضع العام فى اللغة . القاء شىء على غيره ، ومعانيه الاصطلاحية كثيرة بحسب العلوم والصناعات . والوضع اللفظى أقسام .

(١) لغوي ـ وهو تخصيص اللفظ بالمعنى ابتداء بحيث يدل عليه من غير قرينة

(٢) وشرعي ـ وهو استعمال الشارع لفظا فى معنى شرعى بينه وبين اللغوى مناسبة

(٣) وعرفى خاص ـ وهو استعمال العلماء وأرباب الصناعات ألفاظا فى معان غير معانيها الأصلية اللغوية لمناسبة بينهما

(٤) وعرفى عام ـ وهو توسيع عامة الناس فى استعمال الالفاظ في معان بينها وبين معانيها اللغوية مناسبة كاستعمال الدابة فى ذوات الأربع

ونقصد الآن الى بيان الوضع اللغوى الابتدائى فنقول

علمنا مما تقدم أن وضع اللغة لايأتي جملة وعلى دفعة واحدة، بل يقتضى ألوفا من السنين تتكاثر فيها الألفاظ ، وتتزايد حروفها ، ويتولد بعضها من بعض وتتميز أساليب استعمالها بتركيبها مع غيرها . ولكل من الوضع الافرادى والتركيبي بحث يخصه

الوضع الافرادى ومراتبه

الوضع الافرادى (أى تأليف اللفظ المفرد من حروف تؤدى معنى مقصودا) له مراتب يتدرج فيها حتى يصل الى غاية الكمال أو يقارب

المرتبة الاولى

ان مرتبة الوضع الأولى هي مرتبة تألف الكلمة : اما من محاكاة الاصوات واما من الارتجال على حسب الالهام من الله واستعمال قوة النطق الموهوبة أو التلقى عنه تعالى بوحى.

﴿ محاكاة الاصوات ﴾

زعم كثير من القائلين بتولد أكثر ألفاظ اللغة من أصوات الحيوان ان اصل هذه الألفاظ احادية الهجاء، أي أنها ذات حرف واحد متحرك بحركة أو ساكن متوصل اليه بحركة. وقد كان يكون هذا الفرض وجيها لو ان جميع الاصوات ساذجة آحادية النغم والجرس، فاما ونحن نسمع ان من الاصوات المتعدد النغم والجرس، والمتصل، والمتقطع: كأصوات الطيور المغردة وقصف الرعود وضحك الانسان فلا مانع من فرض تألف اللفظ المحكى من أكثر من هجاء واحد أو هجاء متكرر على الأقل، كما يشاهد في بداية نطق الاطفال

ونشوء الألفاظ من محاكاة الأصوات خاضع لعدة نواميس فطرية فى الانسان الأول: ان صوت الانسان مختلف عن أصوات غيره بحكم

اختلاف مصدر صوته عن مصدر أصوات غيره : من الحنجرة والحلق والفم ، فمحاكاته لها لا تكون مطابقة لها من كل وجه ، وما نراه من بعض المضحكين لعواء الكلب ونهيق الحمار انما يكون بعد رياضة وممارسة وتكلف على فروق دقيقة بينها يتميزها العارفون

الثانى : ان تميز الاصوات بحاسة السمع الانسانى يختلف باختلاف الاشخاص ، ويشتد الاختلاف باشتداد التشابه ودقة الفروق . وينشأ من ذلك كثير من أنواع التوهم الفطري فى الانسان المفضى الى الخطأ في الحكم وسوء التفاهم

الثالث : ان القدرة على محاكاة المسموع المتحقق بالنطق الانساني متفاوتة بتفاوت الاستعداد الفطري والانفعال العصبي وتركيب بعض آلات النطق كاللسان ووضع الفكين والأسنان ، فأكثر الامم الآرية لا يستعمل الحروف الحلقية ، وكثير من الهمج لا ينطق الا ببضعة أحرف بحيث لا يستطيع النطق بغيرها ، ولو بذل فى ترويضه كل جهد . والاثنة فى الاطفال ناشئة من استعصاء آلات الصوت فى بداية النطق ، ثم تقوى مطاوعتها بقوة التنبه فيهم وأخذهم بالتثقيف والرياضة ـ والاثنة فى الكبار ناشئة من عجز بعض آلات الصوت عن أداء وظيفتها لضعف في بعض أعصابها

الرابع : أن الانسان ميال بفطرته الى التساهل فيما يصعب عليه ، ولو كان في قدرته تذليله بالجد والتعب ، فالاوربى ينطق العين همزة والخاء هاء لو خاء والخاء كافا مع استطاعته النطق بها بالرياضة والتمرين كما شاهدناه

عند تعليمنا كثيرا منهم

الخامس : ان التساهل فى التعبير يختلف باختلاف الاشخاص والامم فتساهل زيد غير تساهل عمرو ، وتساهل الرومي في النطق ببعض الحروف العربية غير تساهل الطلياني ، وتساهله غير تساهل الانجليزى ، وبينما ينطق الزنجى بالخاء هاء اذ ينطق بها المالطي حاء ، وهكذا

السادس : أن التساهل في النطق ـ أو ما تسمية التحريف ـ يكون غالبا في الحروف المتشابهة المخارج أو المتقاربتها ، كما يظهر بأدنى تأمل عند تتبع تحريفات الاطفال والاعاجم

اذا عرفت هذه النواميس وما تقتضيه سهل عليك معرفة اختلاف الناس فى محاكاة المسموع بحروفهم التى يسهل عليهم النطق بها وذهابهم فى تحريفها عن أصلها كل مذهب . مما كان له أبين أثر في تنمية عدد الالفاظ وخاصة المترادفة والمتقاربة المعانى وسهل عليك استنباط القانون اللغوى الكلى وهو :

(الالفاظ المتصاقبة الحروف متصاقبة المعاني)

وبناء الكلمات من حكاية الاصوات تكون على أنواع :

فمنها ما يحاكى صوت الحيوان غير الانسان

ومنها ما يحاكى صوت الانسان

ومنها ما يحاكى الاصوات الناشئة من تفاعل قوى الطبيعة

فمن الألفاظ المحاكى بها صوت الحيوان « عواء الكلب » أصله هجاء العين متحركا بحركة و « مواء الهر » أصله الميم متحركة و « خوار العجل »

أصله الخاء متحركة و (صئ الفرخ) أصله الصاد محركة و (نهيق الحمار) أصله الهاء و « رغاء الابل » أصله الراء أو النين و « زقاء الديك » أصله القاف و « نبيب التيس » أصله الباء مكررة و « خرخرة الحر » أصله الخاء والراء مكررتين و « قطقطة القطاة » أصله القاف والطاء مكررتين و (طنين الذباب) أصله النون و (صرير الجندب) أصله الصاد والراء وغير ذلك مما لا يحصى فى مثل هذه المجالة

ومن الالفاظ المحاكى بها الاصوات الفطرية فى الانسان (الأنين) أصله النون أو الهمزة والنون و (التأوه) أصله الهمزة والهاء و (الشهيق) أصله الهاء و (الزفير) أصله الفاء و (الشخير) أصله الخاء و (الزحير) أصله الحاء و (العطاس) أصله الطاء والسين وغيرها من أسماء الاصوات. ومثل ذلك يقال فيما كرر فيه حرف أو حرفان من الأحرف المحكية كالتأفف والقهقهة والعطعطة

ومن الالفاظ المحكي بها أصوات تفاعل الطبيعة (مثل تلاقي جسمين بالتصادم والتقارع والاحتكاك أو سقوط أحدهما على الآخر أو انفصال أجزاء جسم بآخر) مثل الدق والصك والحك والهد والسد والقط والبح والمص والرش والشق وخرير الماء وحفيف الأشجار وهبوب الرياح وخفقها وهلم جرا

ومن الفاظ الذوات المنقولة عن حكاية الاصوات لصدورها عنها الأنف والفم والشفة أصلها الفاء كما لايخفى ومثلها الحلق والحلقوم والحنجرة أصلها الحاء زيد عليها بعض الحروف كما سنبينه

فتبين ان جميع الألفاظ الآنفة أصلها حكاية أصوات بهجاء واحد متحرك أو بهجاء ساكن توصل اليه بمتحرك قبله ثم زاد عليه حرف

(١) اما بقصد مد الصوت كماء السنور وخار العجل

(٢) وأما بقصد تكريره وتقويته مثل خر الماء وبح الصوت وصر الجندب وهر الكلب وهد الحائط فترى أن الزيادة وقعت بتكرير الثانى لتكرير حدثه

(٣) وأما بالابدال والقلب لسوء السمع أو سوء الحكاية أو الميل الفطرى الى التساهل مثل (لط) أصل معناه اللزق واللطخ والستر حرف آخره حروفا شتى في مثل لطأ ولطخ ولطم ولطس ولطى ومعانيها كلها متقاربة . ثم بابدال حروفه ينشأ : لت ولتب الناقة في أنفها طمنها ، ولتج بمعنى ضرب ولتخ ولتد ولكد ولتز ولتف ولتم ورطس ونطب وكلها متقاربة المعاني

ومثل (قط) ـ الأصل في معناه (القطع) ، فأخذ منه للاسباب المتقدمة قطع وقطب وقضى وقصم وقصل وقصب وقصر وقصف وقصا وقض وقضم وقضب وقضع وكسر وكسع وكسم وخذ وحذم وجذم وجذر وحذف الخ

ومثل ذلك يقال فى بقية الزوائد على هجاء أو هجاءين لتكوين أبنية الكلم من ثلاثة أحرف ، وهي أكثر مادة اللغة العربية . واقلة ماجاء من الرباعى الاصول والخماسى وندرة ماورد من الثنائى رسخ في نظر العربى فرض أصالة الثلاثي دون غيره ، فتراه يزيد الثنائى حرفا عند التصغير والنسب

﴿ الارتجال ﴾

يزعم كثير من علماء اللغات ان كل ألفاظ اللغات يمكن ردها الى محاكاة أصوات الحيوان ، فكأن الانسان الذي ميزه الله بالنطق والفكر في رأيهم أحط مرتبة من الحيوان الأعجم لايمكنه أن ينطق بفطرته بأصوات يعبر بها عن مقاصده ، مع أن من الحيوان مايتفاهم بأكثر من عشرة أصوات .

ولا ينكر وقوع الارتجال في الانسان الا مكابر فان له علاوة على الاصوات الوجدانية الاضطرارية كالأنين والتأوه والتأفف والقهقهة الفاظاً لايمكن ارجاعها الى محاكاة الاصوات الا بتكلف وتعسف فأحر بها أن تكون من الالفاظ المرتجلة أنطقه بها الله الذى أنطق كل شيء . واذا قسنا نشأة الانسان بقانون نشأة الطفل كما يقررون وجدنا ان كثيراً من الاطفال ينطقون ببعض أهجية مرتجلة يدلون بها على مرادهم ، وقد يستعينون على تفهيمها غيرهم ببعض الاشارات أو تقلص الجوارح أو بسطها ، وربما لايستعينون ، فتفهم عنهم بالتكرار فيألفها الطفل ويألفها مربوه على انا سمعنا كثيراً من الأطفال يرتجلون كلمات مركبة من حروف عدة

ويرد المعارضون الارتجال بأنه لو سلم به لكان كل فرد من الفصحاء بالفطرة أو بعضهم يرتجل كل يوم ألفاظاً جديدة ، مع اننا لم نر أحداً من الناس يرتجل شيئاً الآن .

وجوابنا ان عدم الارتجال في الكبار من أصحاب اللغات الراقية ناشئ عن عدم الحاجة اليه لاستغنائهم بما وجدوه في لغة قومهم سادا

لموزهم ، ولما يصادفونه فيها من القوانين الصوغ والبناء من الاشتقاق والنحت والتوسع بطارق المجاز والنقل من اللغات الاخرى ، هذا الى أن تدوين اللغة في كتب ومعجمات ، ووضع قواعد وضوابط لها يجعلها كالمجمع عليها ، ويحمل المرء على الاحجام عن التزيد فيها ، على أنه قد روى أن بعض رجاز الاعراب ممن كانوا يفدون الامصار عصر تدوين اللغة كانوا يرتجلون بعض الكلمات ارتجالا كرؤبة وأبيه العجاج .

ويزيد المرء احجاما عن الارتجال تقديس لغته وتنزيهها عن الخلط فيها لانها لغة كتبه الدينية . وثمة فريق من الملبين وغيرهم يرى أن أكثر الفاظ اللغة مرتجل ان لم يكن كلها كذلك

ومن أشهر محدثيهم الفيلسوف « رينان » الفرنسوى الشهير فى كتابه « اللغات السامية » وحجته ان توليد الثلاثي من الثنائي أو من الحرفين الاولين ، ثم توليد الرباعي من الثلاثى وهكذا لايخلو من المواضعة والاصطلاح ، وصدورهما من الاناسي الاولين غير معقول لمكان بداوتهم وغرارتهم ، ورد قوله بان المواضعة والاصطلاح مفروضان حتى فى الثنائي بل الاحادى ولكن لابمعنى أن الاقدمين كانوا يعقدون المحافل والمؤتمرات للاتفاق على كلمة كما تفعل المجامع اللغوية الآن ، وانما كان القائل ينطق عن فطرة أو قياس يراعيه في وضع الالفاظ فيسمعه منه غيره ، ويفهم مراده بقرينة اشارة أو خطاب ، فاذا أنس الواضع منه الفهم كرره فى المعنى الذى أراده ، فلا يلبث أن يفشو بين الناس ويصير من أوضاعهم ، ويصطلحون على التفاهم به من غير تعمل ولا قصد الى اتفاق عليه فى مجمع أو محفل .

وقد زعم بعض العلماء ان ارتجال الالفاظ للدلالة على المعانى راجع الى طبائع الحروف المتألفة هي منها ، فعنده ان كل حرف يرمز الى معنى كلى يتفرع الى فرع يدور فيها هذا الحرف . وقد عقد لذلك ابن جنى فى كتابه « الخصائص » باباً شريفاً نذكر هنا قليلا من الأمثلة التى ذكرها فيه قال

« وذلك أنهم يضيفون الى اختيار الحروف تشبيه أصواتها بالاحداث المعبر عنها ، وتقديم ما يضاهى أول الحديث ، وتأخير مايضاهى آخره سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب

ومن ذلك قولهم اشد الحبل . فالشين لما فيها من التفشى تشبه صوت أول انجذاب الحبل قبل استحكام العقد ، ثم يليها احكام الشد والجذب ، فيعبر بالدال التى هي أقوى من الشين لا سيما وهي مدغمة ؛ فهى أقوى لصيغتها وأدل على المعنى الذى أريد بها فأما الشدة فى الأمر فانها مستعارة من شد الحبل .

ومن ذلك قولهم : جر الشيء يجره : قدم الجيم لانه حرف شديد ، وأول الجر مشقة على الجار والمجرور جميعاً . ثم عقبوا ذلك بالراء ، وهي حرف تكرير وكرروها مع ذلك فى نفسها . وذلك لأن الشيء اذا جر على الارض فى غالب الامر اضطرب صاعداً عنها ونازلا ، وتكرر ذلك منه ، على مافيه من التعتعة والقلق ، فكانت الراء لما فيها من التكرير ، ولانها أيضاً قد كررت فى نفسها أوفق بها المعنى

وقال أيضاً « ومن طريف ما مر بى فى هذه اللغة التى لا يكاد يعلم بعدها ، ولا يحاط بقاصيها ازدحام الدال والتاء والطاء والراء واللام والنون

اذا ما زجتهن الفاء على التقديم والتأخير ، فأكثر أحوالها ومجموع معانيها أنها للوهن والضعف ونحوهما

من ذلك الدالف للشيخ الضعيف والشيء التالف ، واللطيف ، والظليف الجبان ـ وليس لها عصمة النمين ـ والطنف : لما أشرف خارجا عن البناء (وهو الى الضعف لانه ليس له قوة الراكب الاساسي والاصل) والنطف : النيب وهو الى الضعف ، والدنف . المريض ومنه التنوفة ، وذلك لان الفلاة الى الهلاك ألا ترام يقولون لها مهلكة ، وكذلك قالوا لها بيداء ، وهي فعلاء من باد يبيد ومنه الترفة والضعف ، لانها الى اللين وعليه قالوا الطرف لان طرف الشيء أضعف من قلبه وأوسطه . قال الله سبحانه وتعالى « أولم يروا أنا نأتي الارض ننقصها من أطرافها »

وقال الطائي الكبير

كانت هي الوسط الممنوع فاستلبت ماحولها الخيل حتى أصبحت طرفا

ومنه الفرد لأن المنفرد الى الضعف والهلاك ماهو ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (المرء كثير بأخيه) والفارط : المتقدم ، واذا تقدم انفرد ، واذا انفرد هلك . الى أن قال .

ومنه الفتور للضعف ، والرفت للكسر والرديف لانه ليس له تمكن الأول ، ومنه الطفل للصبي لضعفه ، والطفل للرخص وهو ضد الشثن ، والتفل للريح المكروهة ، فهي منبوذة مطروحة ، وينبغي أن تكون الدفلى من ذلك لضعفه عن صلابة النبع والسراء والتغضب والشوحط . وقالوا الدفر للنتن ، وقالوا للدنيا (أم دفر) سب لها ، وتوضيع منها . ومنه الفلتة لضعفة

الرأي ، وفتل المنزل لانه تثن واستدارة . وذاك الى وهى وضعفة . والفطر . الشق وهو الى الوهن

فانت ترى من هذا المثل . ومن مراجعة كتابه فى هذا المبحث أن رأيه فيه مما تتقبله النفس بقبول حسن . ولا تستبشعه الأذواق السليمة . وهو أن لم يبلغ مبلغ الدليل فلا أقل من الانسة به فى التعليل اللغوى

أحمد الاسكندرى
الاستاذ بدار العلوم